الحضور الديني عند الشاعر مفدي زكرياء

أ.د لعموري عليش
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)

إن الشاعر مفدي زكرياء تشبع بمبادئ الإسلام، وتجسدت في شخصيته الشاعرية بدءً من ميلاده بواد ميزاب غرداية مهد الدين والعلم والأدب، فتلقى العلوم الشرعية والعربية الأولى فيها، ثم انتقل إلى تونس طلبا للعلم والتحصيل بجامعتها العريقة وقت ذاك " جامع الزيتونة ". فنهل من مناهجه التعليمية التي كانت في ذلك العهد والتي تمثل سببا قويا في بناء قامته الفكرية والشعرية على السواء، ولم يكن هذا العامل وحده في تكوين شخصيته بل هناك عوامل أخرى نذكر منها،علاقته بجمعية المسلمين عن طريق أدبائها وعلمائها، فقد تعرف على أكثرهم من خلال ما كانوا يكتبونه من نثر وشعر، ومقالات اجتماعية وسياسية ودينية على صفحات الجرائد والمجلات التي كانت حاضرة وقتذاك. كجريدتي البصائر، والمنقذ، فاحتك بأدبائها وشعرائها ونهل منهم، وخاصة محمد العيد آل خليفة الذي كان متأثرا بالنهضة الأدبية والشعرية التي كانت قبله وفي عصره، ومؤثرا فيها.

هذا التكوين اللغوي والديني الذي تلقاه في بلده وبالزيتونة بتونس وأيضا التكوين الإيديولوجي والثوري الذي كان بعوامل أخرى منها الواقع الجزائري كان له الأثر البليغ على مستقبل تفكيره وميله وتشبثه نحو كل ما هو أصيل وتأصيلي أي ما له علاقة بالدين الإسلامي وكل مقومات الشخصية الإسلامية،والشخصية الجزائرية من لغة ودين ووطن وسيادة . بهذا التكوين أصبح مفدي زكرياء ليس ملكا لأسرته أو لأصدقائه وأحبائه، إنما ملكا للعالم العربي، ولشعبه بني جلدته ووطنه الذي أحبه بكل أعماقه وهو المغرب

العربي الجزائر تونس المغرب " وقد ذكر هذا في أكثر من قصيدة في ديوانه اللهب المقدس .

والشاعر مفدي زكرياء نشر قصائده في جرائد الجمعية وأظهر للقراء كنوزه وفرائده وعبقريته في الإبداع الفني في شعر المقاومة والكفاح فخلد الشعر وخلد به، فهو شاعر الخلد، وخالد الشعر[1] ذكر هذا في قصيدة له عنوانها " من يشتري الخلد فإن الله بائعه " إن هذا الجو الذي ظهر فيه شاعرنا وشب وشاب عليه فكان الآخذ والمعطاء، نهل منه وأغناه، وأبدع فتفنن بنمنماته الشعرية وسيمفونياته الموسيقية من مرجعياته فأغناه أيضا. يقول البشير الإبراهيمي عن جمعية العلماء هي التي " جمعت الشتات، وأحيت الموات، وجددت المبادئ، ووفرت الوسائل للقوادم المستعدة أن تطير وتحلق، وللأفكار المقيدة أن تبحث وتتعمق، وبدأت النهضة الأدبية تسابق الإصلاح الديني وتغذيه "[2].

إن البعد الديني نراه عند الشاعر مفدي زكرياء مجسدا في أكثر من قصيدة من قصائده الثائرة في وجه الإستدمار الغاشم المستبد وكأنها رصاص يتناثر هنا وهناك مصيبا نفوس المستعمر في ضمائرها وخزا من العار. والثورة الجزائرية الكبرى ثورة المعجزات وثورة الحريات كان الشاعر لا يصلي إلا في محرابها ولا مكان له إلا في أرضها ولا عزف ولا موسيقى ولا شعر إلا لها كانت الجزائر عنده العروس المدلل لذلك نجده يتحدث عنها في قصائد متنوعة في عرض صورتها مجسما ممتلكاتها وروائعها، ومخلدا مناقبها وفضائلها فالناظر في ديوانه اللهب المقدس، وكذلك الإلياذة،يقف على وصف الشاعر لوطنه ونضال أبنائه وتاريخ هذا الوطن فكان يختار لها من ألفاظ دينية ما يناسب مكانتها وعظمتها بين الأمم.

وعليه لا ننسى المرجع الذي يلجأ إليه مفدي زكرياء متمثلا في ثقافته العربية الإسلامية، وفي استلهام الواقع الثوري جسده في قصائده التي يضمها ديوانه اللهب المقدس، والتي أغلبها، كتبها وهو في حبسه (مثل الذبيح الصاعد، زنزانة العذاب،

وقال الله، وتعطلت لغة الكلام، حروفها حمراء، إقراء كتابك ..)[3] فقصائده فداء الجزائر روحي ومالي ... واعصفي يا رياح، لدليل شاهد على مدى عبقرية الشاعر في تمثل تاريخ الجزائر في وصف جمالي ومثالي ديني يحمل صرخة قوية تدوي في وجه كل ظالم، وفي وجه الاستعمار على الخصوص. فصور لنا الجزائر بأنها السيدة المقدسة، وأنها الأم الحنون، وأنها الحرية، والكرامة وأنها الحق وأنها العروبة والدين، الدين الإسلامي الذي شرب منه حتى الثمالة ولا يستغني عن شرابه أينما حل وخاصة حين يريد أن يقول شعرا في العروس المدلل عنده.

يظهر الشاعر في ديوانه اللهب المقدس ممثلا عدة أدوار مرشد ديني وعالم في الدين وعالم بفنون السياسة وأدوارها، وفقيه في القانون، ومؤرخ في التاريخ، وأستاذ في الأدب واللسانيات يختار الألفاظ اختيارا من قاموسه الخاص بذاتيته الشعرية التي استلهما من الواقع الثوري الذي عاشه بكل جوارحه بل بكل إنيته وما تعرضت إليه من ألوان العذاب لأجل حرية الإنسان الجزائري والوطن برمته ومن ألوان العذاب التي تلقاها الشاعر على يدي جلادي فرنسا " الكهرباء والثلج، والجلد، والغطس في الماء البارد إلى حد الشرق والحبس في الغرف الانفرادية والصلب على الأشجار في العراء والتعريض لنهش الكلاب وتسليط الأضواء الكاشفة على العينين لمدة طويلة وغيرها[4].

النص الديني في شعر مفدي زكرياء:

إن القارئ لشعر مفدي زكرياء يقف على شواهد دينية استقاها من القرآن الكريم ومن الحديث النبوي الشريف قولا وسيرة وحتى من التاريخ الإسلامي وهي من دون شك أنها تعبر عن مدى ارتباطه بالإسلام الذي تسلح به في بناء شخصيته، جواهرها من مضمون الإسلام، وكان هذا منذ نعومة أظافره في كتاتيب مسقط رأسه ببني يزقن بغرداية، ثم في جامع الزيتونة بتونس، ولا عيب في هذه المرجعية المثالية التي يستقي منها الشاعر في وضع القصيد وربطه بأحداث واقعه المعاش فهو القائل:

شربت العقيدة حتى الثمالة فأسلمت وجهي لربي الجلالة.[5]

القرآن الكريم:

نجد القرآن الكريم عند الشاعر المجاهد المادة الأساسية في بناء القول الشعري الثوري والذي له مفعوله في ميدان التحرير عند الجنود وعند العامة من الشعب فكان الهدف من ذلك تخليد هذا الواقع الثوري على الخصوص مزخرفا بألفاظ قرآنية ومشكلا لوحة فنية جمالية تاريخية خالدة لا يمكن فناءها لأن كل شيء فان " كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام "[6] فكلام الله في ذاته والشاعر خلد شعره بمعجمية كلام الله. فشعره خالد أزلي. علما أن المتتبع لشعره بالقراءة، لا يكاد يقرأ قصيدة إلا ويقف على أثر ديني قرآني مجسدا في بعض الأحيان في سورة كاملة، وفي بعضها الآخر في آيات من سور، عطفا، أن معجمية قصائده ألفاظ قرآنية في مجملها ويدل هذا عن مدى تشبثه بكتاب الله الذي يمثل عنده زاد الدارين الدنيا والآخرة فنعم الزاد.

وها نحن نقف على إحدى قصائده تضمنت سورة قرآنية كاملة من حيث المعنى، وتدل على مدى براعة الشاعر في النظم الشعري وحكمته في اختيار تناول القضايا الإنسانية وعلاجها بصورة نفسية واجتماعية وأخلاقية فاجتمعت عنده مجموعة من علوم السلوكيات لعلاج قضية إنسانية حدثت بعامل خارج عن نطاقها وغير منفصلة عنه لثورته ضد الإنسان أو الغضب منه لما أحدثه من خلل في مجال وجوده أو الحيز الذي يعيش فيه، فالقصيدة التي كتبها بشأن الزلزال الذي حدث بمدينة الشلف عام 1954م فنراه يصف الزلزال على أنه حدث إلهي فأثار في وجه الإنسان وجعل منه القتلى ومنه الجرحى وخلف له آلام وخزت النفس بجروح عميقة، فدعي الناس إلى إيلاف إخوانهم بالتخفيف من محنتهم كل بحسب ما يملك من مساعدة، ولم ينسى فضل الله وطاعته الواجبة على كل مخلوق في هذه الأرض حيث يرى أن دخله حل في وضع هذه المسألة " حدوث الزلزال " لأنه رأى أن كثرة الآثام والمنكرات التي أرتكبها

الناس كانت سببا في إحداث هذا الكارثة الطبيعية وما خلفته من آثار سلبية اجتماعية وأخلاقية واقتصادية...

يقول الشاعر:

هو الإثم زلزل زلزالها فزلزلت الأرض زلزالها.
وحملها الناس أثقالهم فأخرجت الأرض أثقالها .
فلا تسألوا الأرض عن رجة تحاكي الجحيم وأهوالها
ألا إن إبليس أوحى لكم ألا أن ربك أوحى لها
تعاليت، يا رب كم عابث بأيك لم يك يصغي لها.(7)

فالناظر لهذا النظم الشعري مادته اللفظية "القرآن الكريم" حيث جسد ألفاظ سورة الزلزلة كما هي، لكن الجانب الفني للنظم وموسيقاه، يدل على قوة تحكم الشاعر في اللغة وتوظيف التناص اللفظي اللغوي في المقامات الأدبية المتنوعة الأجناس، ومدى قدرته أيضا على توظيف النص الديني توظيفا اجتماعيا حيث أدرك الحراك الاجتماعي الإنساني وتفاعله مع الطبيعة كجزء غير منفصل عنها من حيث الحركة والتغيير وضرورة هذا التفاعل في الصورتين الإيجابية والسلبية من ناحية العمران البشري وزوال العمران البشري كما يقول ابن خلدون العوامل الطبيعية والجغرافية المؤثرة في العمران البشري سلبا وإيجابا. له دور فعال في إحداث مثل هذه الظواهر الطبيعية المفاجئة والمباغتة. ونفسيا أنه حلل الظاهرة الطبيعية تحليلا نفسيا وانعكاسها على نفسية الناس أبضا وهذا رأي مثلته الفلسفات القديمة حين يذهب أرسطو إلى تفسير سلوك الكائن الحي الحيوان بما فيه الإنسان تفسيرا طبيعيا حيث لاحظ أن تغير الطبيعة يؤدي إلى تغير في سلوك الإنسان، ولعل هذا ما يجعلنا نقول خلقنا منها وإليها نعود ومنها نعود مرة أخرى وما نظرية العناصر الأربعة التي يتحدث بها الفلاسفة الطبيعيون الأوائل لدليل على ما نذهب إليه حين نقول أن غضب الطبيعة من سلوك الكائن الحي وما يحدث فيها. وفي نظر الإنسان أنها مخلوق إلهي مثلها مثل المخلوقات الأخرى وأخلاقيا أنه عالج الموضوع

بشعره من زاوية طرح قيم أخلاقية مثلت المشكل الأخلاقي الحقيقي وهو عدم إدراك الناس للمشكل الأخلاقي إدراكا واضحا حيث أن القيمة الأخلاقية لا يمكن معرفة طبيعتها باستخدام العقل وأدواته أو بمسالك أخرى ذات طبيعة إنسانية ما لم يقف الإنسان عند عتبة المشكل وهو ما هو خير فمن الله وما هو شر فمن أنفسنا وإدراك الخير والشر يتوقف عن مدى تطبيق الإنسان لأوامر الله عز وجل في المعاملات التي حددها والواجبات التي فرضها كفرض عين وفرض كفاية، ولذلك نبه الله عز وجل الإنسان في قوله تعالى لإدراك قيمة الخير وقيمة الشر " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يراه ومن يعمل مثقال ذرة شرا يراه "[8] وإدراك القيم من حيث تفاوتها وإيجابها وسلبها يتوقف على القصدية أو النية" إنما الأعمال بالنيات كما في قول الرسول، لذلك الله عزل وجل يقول " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون."[9]

لهذا راح الشاعر مفدي زكرياء يجسد هذه الأخلاقية بصورة فنية منبها لهذه المثل القيمة وامتثالها عند الشدة والتحلي بها، والرجوع إلى الخالق الأعظم هو الله سبحانه وتعالى ومن دونه لا نساوي شيئا،فهو خالقنا وهو مولانا وهو شفيعنا هو الرحمان الذي به تقوم ذاتنا، وبه تفنى فلا مرد لقضاء الله فهو حجة في الكائنات. ونجد الشاعر يوظف اللفظ الديني بحسب طبيعة الموضوع من الناحية الجمالية، والناحية الأخلاقية، فهو لا يستغني عنه حتى ولو كان يريد أن يصف مشهدا بعبارات التبجيل والتخليد مع اختيار اللفظ الثقيل في الوزن والصادق في الفعل والقول فحين يقول:

جزائر يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات[10]

فهو يصف الجزائر وكأنها مخلوق اختص به الله عز وجل دون غيره من المخلوقات في الإبداع والإتقان والجمال فجعلها كدليل مادي يمثل سمو الإرادة الإلهية في أعلى مراتبها،ويجسد صفات الله تجسيما فهو الخالق الأزلي الظاهر بسلوكياته الأنسوية كالبسمة والوجه الضاحك والقدرة على التصنيع، يقول:

ويا بسمة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسمات[11]

جزائر يا بدعة الفاطر ويا روعة الصانع القادر

فلولا جمالك ما صح ديني وما إن عرفت الطريق لربي[12]

إن هذا الوصف للجزائر كجمال فتاك وكبدعة فاطر، ربطه مفدي زكرياء بالدين في أسمى معانيه من حيث الوجود الإلهي الذي يدل على أن هناك كائن أعظم هو الله ترجع إليه خلق الأشياء وإتقانها وكمالها وعن طريقها نقف على عظمة الله ودينه كما أنها تدل على حجة الله أنه الخالق الأعظم الأحد واجب الوجود. ويذكر كثير من أسماء الأنبياء التي ذكرت في القرآن الكريم في قصائده، يذكر اسم عيسى ومريم وسليمان، وموسى، ويوسف عليهم السلام ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع في قصائده التي تؤلف سفر اللهب المقدس خاصة. وأمثلة من شعره عن الأسماء:

وهزت مريم العذرآ تخيلا فأسقطت الفلوذج والرضايا[13]

وكان محمد نبيا لعيسى وكان الحق بينهما انتسابا

وموسى، كان يأمر بالتآخي وحذر قومه، مكرا، وعابا[14]

إن مرجعية هذه الأبيات تعود إلى آيات قرآنية فمنها كان هذا التصوير الشعري الجمالي، الذي يحمل معان الرسالة الإلهية من قوله تعالى، والذي جسده شعرا في البيت رقم 3 على سبيل المثال لا الحصر يقول الله " وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتاب عليكم، إنه هو التواب الرحيم "[15] علما أن هناك آيات كثيرة تدل على المعنى الشعري الخاص بموسى المذكور في رقم 3 حين يرشد قومه إلى الخير، وإلى فضل الله عليهم ويحثهم على طاعته والإستجابه لأوامره " قصة موسى مع بني إسرائيل في سورة البقرة "

وفي قصيدة الذبيح الصاعد يوظف آية قرآنية من سورة النساء (وكلم الله موسى تكليما)[16]

يقول الشاعر مفدي زكرياء:

حالما كالكليم كلمه المج د فشد الحبال يبغي الصعودا.[17]

إن شعر مفدي زكرياء يوقفنا عند مجال التراث الديني في أوسع معانيه وبكل أدواته وطرائقه ودلالاته اللغوية فيكتشف القارئ لشعره أنه يحمل ثنائية تمحورت بين الموضوع الشعري والنص الديني فتشكل منها أنموذجا ماديا وصوريا معبرا عن مدى براعة الشاعر وعبقريته في توظيف هذه الثنائية لأن المرجعية الدينية بالنسبة إليه هي النبض الحيوي الذي يعمل على صنع وبناء القصيدة في غاية من الدقة وغاية من النظام الشعري المستقيم الذي يتضمن محتوى أخلاقي واجتماعي وجمالي وسياسي وديني يساعد على حضور المعاني السامية من قيم تمجد السيادة، وقيم تمجد الشخصية، والعزة، بالوطن، والانتماء اللغوي والديني .... وقيم تحفظ تاريخ الإنسان المغربي والجزائري على الخصوص وهذا ما جعل مفدي زكريا متخذا الشعر كرسالة مؤديا دوره في تبليغها بأقوى الأدوات المقنعة حجة وتمثيلا ودليلا، وبأجمل العبارات والألفاظ التي لها وقع في ذات المستمع تطربه وتنقله نحو إدراك المستقبل، وطلبه عن طريق فهم الحاضر المبني على الماضي.

إذن: إن ديوان اللهب المقدس، والإلياذة عند قراءتهما نقف على رصيد ديني متعدد الموضوعات ومتشعب الفروع، فارتبط الشعر عند الشاعر بالإصلاح، القائم على أسس دينية والتي رأى أنها ضرورية للإبداع والالتزام بما يجب أن يكون وما هو كائن وهذا حال المبدعين والمبتكرين الذي يمزجون بين ما يقولونه وبين ما يلقونه من معارف وما يشعرون به، وما يفرضه الواقع بكل مجالاته، فالتراكمية المعرفية بشتى أنواعها وخصوصياتها تولد من دون شك ميلاد جديد لذلك قيل أن: " أكبر المبدعين أصالة من كان تركيبه الفني ذا طبيعة تراكمية، ومن الحقائق التي يجب أن نعترف بها أن لا وجود لمبدع يخلص لنفسه وإنما مكون من جانبه الأكبر من خارج ذاته بوعي أو غير وعي ..."[18]

وقد حاولنا أن نتتبع تأثر مفدي زكرياء في نصوصه الشعرية بالتراث الديني " القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتاريخ الإسلامي، " ونعود إلى هذا الموضوع فنجده يحضر الآيات القرآنية في بناء أقواله الشعرية وأيضا الأحاديث وكذلك التاريخ الإسلامي ويظهر هذا في أكثر من موضوع.

موضوع علاقة الإسلام بالوطن: إن الإسلام عقيدة مفدي زكريا في لفظه ولغته وتفكيره ووجدانه وحبه فهو القائل:

ويا من سكبت الجمال بروحي ويا من أشعت الضياء بدربي
فلولا جمالك ما صح ديني وما أن عرفت الطريق لربي
ولولا العقيدة تغمر قلبي لما كنت أومن إلا بشعبي(19)

إن هذه الثنائية الواضحة في هذه الأبيات والتي تمثل العلاقة بين الدين والوطن هي ثنائية تعبر أولا عن صدق عاطفة الشاعر وما يكنه من حب لوطنه حتى الثمالى، فلا جميل في نظره أيا كان هذا الوطن إلا الجزائر وتعبر ثانيا عن مدى تكوينه الذاتي وترويضها بمبادئ الإسلام التي جعلت منه شخصية إسلامية صامدة ومقاومة لكل انحراف أو مسلك يتعارض وهذا النهج القويم فالعلاقة هي علاقة بناء واتحاد وعلاقة مزاوجة بين المادي والمعنوي بين الجسد والروح أو الصورة والجسم فكلاهما يمثلان المرجعية في فكر مفدي زكرياء ويوجد هذا الإتحاد في العلاقة بين الدين والوطن في كثير من أقواله يقول:

تأذن ربك ليلة قدر وألقى الستار على ألف شهر
وفال له الشعب أمرك ربي وقال له الرب أمرك أمري(20)

الناظر لمعجمية هذه الأبيات يرجع مرجعيتها إلى سورة القدر ولا يتخلى مفدي في شعره عن الثنائية المتنوعة من حيث الموضوع ثنائية الإيمان والوطن الثورة والإيمان، الدين والجمال، الدين والوطن، الدين والتاريخ.....

وقد نقف – كما قلت سلفا – على كثير من أقواله الشعرية والتي وظف في مادتها القرآن الكريم وأصبح جزءا من كلامه وهذا ما يعرف بالتناص فيقول:

ويلتف ساق بساق فتصبو فيغمرنا ملتقى الفكر نصحا[21]

هذا القول الشعري يعبر بصريح ألفاظه عن قوله تعالى " وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق "[22]

وقوله:

ومن خائرين كأعجاز نخل ضمائرهم في المزاد رقيقة[23]

هو بيت من الشعر جماليته المعجمية مقتبسة من النص القرآني حيث يقول الله تعالى (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)[24]

ونجده يحدثنا عن طهارة طبعه ويعود هذا تدرجه في صباه في التكوين من قرآن كريم وسنة نبوية شريفة، ولغة عربية فصيحة،نحوا وصرفا وبلاغة وقياسا، وما اكتسبه من أخلاق وتربية وقيم فأصالة هذا التكوين بناء ونسبا جعلت منه شخصا طاهرا فهو القائل:

وعرق الأصالة طهر طبعي ونور الهداية أذهب رجسي[25]

وهذا البيت معجمية ألفاظه مقتبسة من النص القرآني الذي يتمثله مفدي زكرياء كمرجع أساسي ووظيفي في بناء المعنى والحفاظ على صورة جماله من الناحية الإبداعية ومعبرا عن صدق طبعه وتكوينه الديني والأخلاقي العاليين وصفاء عرقه الدموي وخلو هما من كل رجس ممثلا في قوله تعالى: " وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا "[26]

إن شعر مفدي زكريا يعبر بإخلاص عن مدى تمسكه وتأثره وارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم والذي جعل منه شاعرا أصيلا يملك لغة الشعر الصادقة وكأنها وحي يوحى إليه لأن شعره جاء كنص ثوري يحمل معاني متعددة تهدف إلى تحقيق غايات سامية، كما أنه يوظف الشعر لتحقيق أبعاد أخلاقية وتربوية وتاريخية فالبعد التاريخي يتجسد في نظرته للعالم العربي أنه الكل الذي لا يتجزأ حيث يرى أن شعورنا بالوحدة وبالاتحاد لبعضنا يعود

للفتوحات الإسلامية التي أشعرتنا بأننا لنا دين واحد ولغة واحدة وتاريخ مشترك ووطن واحد لذلك نراه ينادي بالوحدة المغاربية التي يرى أنها لا تتمثل في التراب فحسب بل في الضمير والكلمة والموقف والمبدأ وهي الوحدة التي دعا إليها الإسلام القائمة على الروابط التي تؤسس على التقوى والأخوة وتعلو وتلغي كل عصبية تدعو إلى تفوق جنس بشري على جنس بشري آخر والإتحاد القبلي.... أليس هذا ما تنص عليه الآية "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله "[27] فهو الذي يتخذ من هذه الوحدة الإلهية معنى سامي جسده شعرا فالبرغم من اختلاف العرب في ألوانهم وأماكنهم ولهجاتهم وتقاليدهم وبالأخص أهل المغرب فإنه ينبغي تجاوز هذه العناصر والأخذ بجوهرها يقول:

ومن لم يؤخذ شتات الصفوف يعجل به حمقه للفناء[28]

وفي المغرب الجبار ناشدت وحدة سبقت بها- في فجر عمري أقراني

وأحببت أوطاني رضيعا ولم أزل أغني مع الدنيا، بأمجاد أوطاني.

وهمت بأبناء العروبة يافعا أرى كل أبناء العروبة، إخواني.[29]

2- السنة النبوية:

إن حضور السنة النبوية في شعره تحصيل حاصل، لأن في علوم القرآن يقال أن القرآن يفسر بعضه ببعض، وأن السنة تفسر القرآن والقرآن يفسرها لأن النبي صلى الله عليه وسلم "لا ينطق عن الهوى إنما هو وحي يوحى إليه " ومن هذا المبدأ لجأ الشاعر مفدي في توظيف القرآن ومعانيه في بناء قصائده الشعرية فهو من دون جدال أنه يوظف السنة النبوية الشريفة فهو القائل:

فقمنا نشيد اقتصاد البلاد ونعلي المصانع فيها ونبني

ورحنا نوفر للكادحين الرغيف الشريف بعلم وفن

ويزرع فلاحنا أرضه يذوب الشرايين لا بالتمني[30]

إن هذه الأبيات يقوم أساس ميزانها على الدين قرآنا وسنة، حيث أن الإسلام يدعو إلى العمل الصالح، وبالعمل يتقرب الإنسان إلى خالقه فالله يقول: " يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه[31] وقوله تعالى: " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور "[32]. ويقول الله: " وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون[33].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة أن مسالك العمل الذي أحلها الله متنوعة ومتعددة ومن هذه الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أنه يأتي رجلا فيسأله، أعطاه أو منعه "[34] وقوله عليه الصلاة والسلام " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله دواد عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[35]

وشاعرنا حين يتحدث عن قيمة العمل وعن روح حب العمل في أبناء الجزائر لأجل تحقيق مجتمع اقتصادي قوي متين تسود فيه العدالة والرفاهية وتنمو فيه كل وسائل التنمية والثروة يستلهم الشاعر المعاني السامية لمفهوم العمل وغايته من السنة النبوية، حيث أن الإخلاص في العمل والإتقان، وعمارة الأرض، واستثمار كل ثرواتها الطبيعية وابتغاء الرزق بالطرق التي أحلها الله، هي عبادة يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها " ومعنى هذا أن العمل عبادة مطلوبة لذاتها، وبالتالي الأجيال تستفيد من بعضها وحركة التاريخ مستمرة فجيل الاستقلال استفاد من غرس جيل الثورة.

مفدي زكريا وجمعية العلماء المسلمين:

لقد ساند الشاعر بشعره في بعده التربوي الوطني دعوة جمعية علماء المسلمين في مسألة الإصلاح وشروطها الإسلامية، وذلك من أجل العمل على توحيد صفوف

الشعب الجزائري وإرساء مقوماته وثوابته السيادية فها هو عبد الحميد بن باديس والذين ساندوا وآزروا دعوته التي مثلت الحركة الإصلاحية فيما بعد، يرى أن النهضة الإسلامية في الجزائر لا معنى لها إلا إذا كان القرآن الكريم هو الأساس الفعلي في كل عمل تربوي وتعليمي بوجه عام، وفي هذا المجال يقول رائد الحركة الإسلامية عبد الحميد بن باديس " أننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها "[34] لقد راح مفدي زكرياء يناشد هذه الدعوة ويقول فيها شعرا معبرا عن جوهرها الأصيل الكامن في نفسية الإنسان الجزائري الذي يحب العدل ويطلب السلام ويحارب ويموت من أجل حريته ومن أجل مبادئه لأنه يرى أن هذا الشعب نال حريته بكرامته وبإخلاص نيته لله تعالى، ويريد مفدي زكرياء أن يستمر هذا في أبناء الجزائر بعد الاستقلال فيرى أن صلاح جيل الاستقلال هو صلاح مربيه، وهذا الصلاح يقود المجتمع الجزائري إلى التطور والتقدم ولا ننسى دعوة مفدي زكريا في كثير من أشعاره يوجه الشباب إلى أبواب الصلاح والنجاة، ويرفض ما آل إليه حال بعض الشباب إلى انكسار وتيه، والابتعاد عن جادة الحق والصواب، والابتعاد أيضا عن المسلك القويم للتربية الصحيحة، ويتغنى بالشباب الوفي لدينه ووطنه بكل جوارحه خاصة الإسلام والجزائر ويرفض كل ماله صلة بالرأسمالية والشيوعية[35]. فهو في شعره المقدم للشباب مربيا ومعلما وأخلاقيا ومرشدا روحيا. وقد نجد كل أعضاء جمعية العلماء المسلمين يدعون إلى التشبث بالقرآن الكريم في الإصلاح والتقويم النظري والعملي، ويرون أن العلم الذي لا غنى عنه في كل مراحل التعليم – بكل أطواره – فهاهو الشيخ أبو اليقظان الذي خصص مقالات كثيرة نشرها في جريدة الفرقان والذي يتحدث فيها عن القرآن الكريم وما تحمل سوره من موضوعات في مجالات الحياتين وما يجب الالتزام بمبادئه وبمنهجه، إن هذا الوضع الفكري والأدبي والإصلاحي الذي عايشه

الشاعر كان له وقع في نفسيته على الرغم أنه شب عليه ولكن زاده حماسة وحرك كوامنه الفطرية الأصيلة فأبدع شعرا إصلاحيا مرجعيته القرآن الكريم. وإليك هذه الأبيات التي تظهر فيها المعاني القرآنية واضحة والتي قالها في فلسطين وأبناءها مبينا لهم الطريق الفعال والناجح في استرجاع الأرض المغتصبة، ورفع الظلم والطغيان الذي يهدد كيانهم ووجدهم. يقول الشاعر:

فإن،تنصروا الله ينصركم وينجز أمانيكم الغالية

ولن يخلف الله ميعاده ولا ريب ساعتنا آتية[36]

يستلهم مفدي زكريا في هذين البيتين قوله تعالى (حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد)[37] وأيضا قوله تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[38] وكذلك قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[39]

فالناظر في شعره يحكم، أنه لا تخلو قصيدة من معنى قرآني أو لفظ قرآني وهذه الظاهرة اللغوية الصحية التي يتميز بها الشاعر مفدي زكريا تدل على وفاءه لثقافته الإسلامية وتكوينه الثوري فاستمدا منهما قوته البلاغية، من جزالة اللغة ووضوح البيان وحصول الهدف .

الخلاصة: أن شعر مفدي زكرياءحارب الخرافات والبدع والضلالات التي أشاعها الاستعمار لغرض مسخ وفسخ شخصية الجزائر وتدنيسها، فتصدى لمحاربتها بالكلمة الصادقة فقوله الشعري كان أكثر من رشاش أو مدفع، يمثل الشعر عنده رسالة وظيفتها متعددة المهام وتصب جلها في تقويم سلوك الإنسان الجزائري على المنهج الإسلامي.

الحضور القوي للمعاني القرآنية في شعر مفدي زكريا مستلهما معانيها الأصيلة مة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " وتوظيفها في صورة جمالية

جديدة وكأنها مولود جديد ونذكر مثالا من شعره للتأكيد على استعمال القرآن الكريم بصورة إبداعية وجمالية يقول:

بلادي عرفت الله في قسماتها وآمنت أن الله ليس له ثاني[40]

في هذا البيت يجسد أكثر من آية قرآنية التي تدل على الوحدانية، وأيضا سورة الإخلاص بكاملها وخاصة في قوله:

في كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والله في كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد.

هكذا أراد زكريا أن الشعر رسالة تنبض بمعاني سامية تحمل قيما في جل ميادين حياة الإنسان قيم تربوية وأخلاقية واقتصادية ودينية.

الإحالات والهوامش:

(1)– فضيلة الشيخ، عبد الرحمان شيبان، مفدي زكرياء، وعلاقته بجمعية العلماء المسلمين، مقال منشور في أعمال الملتقى الدولي مفدي زكرياء شاعر الوحدة الجزائر 2007 ص87.

(2)– محمد البشير الإبراهيمي، تقديم لكتاب أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب، ص، ي، ط، الثالثة، س، 1984م. كثرهم عن طريق ما كانوا يكتبونه من نثر وشعر في المجلات الحاضرة وقت ذاك

ينظر ديوان (مفدي زكرياء، اللهب المقدس، 1983 نشر المؤسسة الوطنية للكتاب.

(3)– محمد ناصر، شاعر الثورة في مراحل حياته، مجلة الثقافة، عدد 93، مايو، 1986م ص109.

(4)– مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، الطبعة الثالثة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992م، ص89، وتنظر الإلياذة، نشر المعهد التربوي الوطني الجزائر، إشراف وزارة التربية الوطنية، ص73.

(5)– قرآن كريم، سورة .الرحمن، الآيتان، 26، و27.

(6)– ينظر مقال لطروش الشارف، الحس الديني والحضاري في شعر مفدي زكريا في أعمال الملتقى الدولي، ص63.

(7)– قرآن كريم، سورة الزلزلة الآيتان 07، 08.

(8)– قرآن كري، سورة البقرة الآية 216.

(9)– مفدي زكرياء الإلياذة، نشر المعهد التربوي الوطني، ص03.

(10)– مفدي زكرياء الإلياذة نشر المعهد التربوي الوطني 03.

(11)– المصدر نفسه، ص04.

(12)– ديوان اللهب المقدس، لناشر الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، الجزائر ص37)

(13)– ديوان اللهب المقدس، ص39.

(14)– قرآن كريم، سورة البقرة الآية 54.

(15)– قرآن كريم، سورة النساء الآية 164.

(16)– ديوان اللهب المقدس، ص10.

(17)- محمد المطلب، قراءة أسلوبية في الشعر الحديث ط1، ص162.
(18)- الإلياذة، ص05.
(19)- الإلياذة، ص53.
(20)- قرآن كريم، الإلياذة، ص10.
(21)- سورة القيامة، الآية 29-30.
(22)- الإلياذة، ص12.
(23)- قرآن كريم، سورة الحاقة الآية 7.
(24)- الإلياذة، ص19.
(25)- قرآن كريم، سورة الأحزاب الآية 33.
(26)- قرآن كريم، سورة آل عمران، الآية 110.
(27)- الإلياذة، ص06.
(28)- ديوان اللهب المقدس، ص321.
(29)- الإلياذة، ص، 71.
(30)- قرآن كريم، سورة الانشقاق، الآية، 06.
(31)- قرآن كريم، سورة الملك، الآية 15.
(32)- قرآن كريم، سورة التوبة، الآية، 105.
(33)- حديث شريف أخرجه البخاري في صحيحه.
(34)- حديث شريف أخرجه البخاري في صحيحه.
(35)- ابن باديس، الشهاب، ج9 / 10، سنة 1934م، ص390.
- تنظر الإلياذة.
(36)- ديوان اللهب المقدس، ص349.
(37)- قرآن كريم، سورة الرعد، الآية 31.
(38)- قرآن كريم، سورة الروم، الآية 6.
(39)- قرآن كريم سورة محمد الآية 07.
(40)- ديوان اللهب المقدس، ص328.